الفصل الثانى

أ - طرق التعبير عن التأمل فى الشعر المهجرى

الشعر هو أداة التعبير التى اتخذها المهجريون وعاء يصبون فيه مشاعرهم المفكرة وأفكارهم الشاعرة . ووقف النثر إلى جانب الشعر يؤازره فى ميدان التأمل بألوانه المتعددة من قصة ومقالة ورواية ومسرحية (١)

وللشعر لغته الخاصة المعبرة عن فكرة الشاعر ، والمصورة لعاطفته ، والحاملة أسرار نفسه إلى الوجود .

وقد خاض المهجريون تجاربهم التأملية وعبروا بها عن موقفهم إزاء النفس الإنسانية ، وأشواقهم الروحية إلى المثل الأعلى ، وبحثهم عن سر الوجود ، ولغز الموت وشغفهم بالطبيعة .

وكانت لهم طرقهم التعبيرية عن المضامين السابقة ، وإن كانت التجربة التأملية تتسم بالموضوعية حينا وبالذاتية أحيانا فإن طريقة التعبير عنها جاءت عند المهجريين فنية خالصة ، واستطاعوا أن يؤلفوا بين الذاتية والموضوعية فهم لم ينظروا فى واقعهم وحسب بل فى واقع الإنسان والحياة والقدر ، وتوفرت لقصائدهم الوحدة العضوية ، وتآلف الصورة الشعرية وتناسقها ، وانسجام الشكل مع المضمون ، وتناسب الإيقاع والمضمون تناسبا فطريا وشيوع الموسيقى الداخلية فى قصائدهم .

وتنوعت طرق التعبير عن التأمل فى أشعارهم . فالقصة الشعرية تطالعنا عند أبى ماضى بما تتسم به من نضج فنى ، وبناء متماسك ، وهى عند القروى كذلك وأن كانت لاتصل إلى مستواها الفنى عند أبى ماضى - كذلك نجدها عند الياس فرحات وميخائيل نعيمة ، وجورج صيدح ، ونسيب عريضة .

كذلك جاء تأملهم الشعرى من خلال تعبيرهم الملحمى والأسطورى كما نجد عند فوزى المعلوف فى " بساط الريح ، وشعلة العذاب ، وعند شفيق معلوف فى مطولته " عبقر " والأحلام " وعند الياس فرحات فى " أحلام الراعى " وعند نسيب عريضة فى " على طريق ارم وعند أبى

(١) أنظر كتاب : مقالات وبحوث فى الأدب المعاصر » للمؤلف دار المعارف ١٩٨٢ م المبحث الخاص بالتيار التأملى فى النثر المهجرى ، حيث رَصَد المؤلف تجربة التأمل فى فنون النثر فى أدب المهجر وهى : [١ - المقالة ٢ - القصة ٣ - الرواية ٤ - المسرحية - الخاطرة والأبدة] .

ماضى فى " الأسطورة الأزلية ، وعند رياض المعلوف فى " ليليت " .

– والرمز الفنى للتعبير عن المضمون يطالعنا فى قصائد كثيرة عندهم . ذلك لأن الرمز فيه إثراء المضمون حيث يضفى عليه رؤية شاملة ، كذلك فيه عمق فى الأفكار ، والمعانى وخصوبة فى الخيال ، وتماسك فى البناء المعمارى للقصيدة، وتآلف فى الصورة الشعرية حيث تكتسب القصيدة وحدة فنية وعضوية يتصل أولها بآخرها وتبتعد عن التفكك والاضطراب وتقترب من الصدق الفنى وكان الرمز عند المهجريين واضحا لاغموض فيه .

– والحوار كان من طرق التعبير عن التأمل عند المهجريين ، وهو يضفى على القصيدة الطابع المسرحى والقصصى ، ويجعل إيقاعها أكثر تأثيرا فى النفس فتتجاوب معها وتنفعل بها فتتأثر بمضمونها .

وهذه الطرق التعبيرية جددت بناء القصيدة العربية شكلا ومضمونا ، وإن كان الشعر العربى لم يعدم مثل هذه التجارب ولكنها لم تأخذ صفة العموم . والنضج الفنى فالشعر القصصى نجده عند امرىء القيس وعمر أبن أبى ربيعة وحاتم الطائى ولجأ الشعراء المتصوفون إلى الرمز ليعبروا عن أشواقهم الروحية إلى الحقيقة الكبرى .

وربما تأتى القصة الشعرية خالية من التأمل الفنى وقد يأتى الحوار ساذجا تافه المعنى وقد نجد الرمز مفتعلا ، والأسطورة بعيدة عن التعبير الصادق عن المضمون .

ولكن عند المهجريين نضجت هذه الطرق التعبيرية ونجحت فى الوصول إلى غرضها وأثرت فى حركة التجديد فى الشعر العربى ، شكلا ومضمونا ، حيث أدخل المهجريون فى الشعر عنصر الفكر فتعانق القلب والعقل فى التعبير عن التجربة الشعرية التى تتآزر فى تكوينها الألفاظ والعبارات والأفكار والعواطف والصورالشعرية لتعطينا عملا فنيا صادقا بعيداً عن الافتعال .

وعن هذه الطرق سأتحدث فى إيجاز منوها بدورها فى إبراز التجربة التأملية :

أولاً : القصة الشعرية :

وهى شائعة عند أبى ماضى شيوعا يدعو إلى الغرابة والدهشة فلا يكاد يخلو ديوان من دواوينه منها .

– ففى ديوان تذكار الماضى هذه القصص الشعرية . وردة وأمين ص ٤٧ ، أنا هو ص ٢٥٣ ، قتل نفسه ، ص ٢٦٩ ، " مصرع حبيبين ص ٧٦ .

وهذه القصص لم تتمتع بالنضج الفنى الذى عهدناه عند أبى ماضى . فقصة وردة وأميل خالية من الرمز الأصيل والعمق الذى اتسمت به أشعار أبى ماضى بعد ذلك ، وهو يلتقى مع المنفلوطى فى خيالها الرومانسى الحزين ، وتخلو من الأفكار العميقة ذات الصبغة الفلسفية حيث تتحدث عن فتى يحب فتاة ويموت الفتى قتيلا وتموت الفتاة كذلك لأنهما لم ينعما بالحب الذى قصداه معا ويقول فى نهاية القصة :

ياصاحبى إن جزت فى قبريهما ... فاتلُ السلام عليهما ترتيلا
من شاعر ماحرك الغصن الهوى ... إلا تذكر وردة وأميلا

ولاحظتُ أنه يستعمل الألفاظ الصعبة التى لاتوحى ولاتناسب المضمون مثل جيش اللهام ، المدنف ، الهزبر ، العطبول ، قسورة ، السدر ، العفر ، وبعض هذه الألفاظ كانت تلجئه إليها القافية مثل كلمة " عطبول " .

وهكذا بقية القصص الموجودة بهذا الديوان . وربما يرجع هذا الضعف والتصور فى التعبير عن التجربة الشعرية التأملية إلى أن هذا الديوان كان باكورة نتاج الشاعر فى أول عهده بالشعر وهو فى سنى عمره الأولى وإن كان هناك شك حول تاريخ مولده إلا أن المهم أن هذا الديوان كان باكورة نتاجه الشعرى . كذلك كان الشاعر متمسكا بالمنهج التقليدى فى بناء القصيدة وكانت تجاربه تقليدية ساذجة ، وكان فى هذا الوقت مازال بعيدا عن الالتحام بالتراث الإنسانى والثقافات الأجنبية " التى أتيح له أن يطلع عليها وهو فى المهجر .

وفى ديوان " الخمائل والجداول " تبلغ القصة مستواها الفنى عند أبى ماضى . ففى ديوانه الجداول (١) القصص الآتية : العنقاء السجينة ، الحجر الصغير ، التينة الحمقاء ، المجنون ، الأشباح الثلاثة ، الطلاسم ، هى ، وفى ديوان "الخمائل (٢) القصص الآتية : ، الشاعر والملك الجائر ، الفراشة المحتضرة ، أنا وابنى ، الأسطورة الأزلية .

– ففى قصيدته " العنقاء " يبحث عن سر السعادة ، ويسأل البحر عنها والقصور لكن

(١) أنظر الديوان الصفحات الآتية على التوالى ١٠، ١٦ ، ٣٧، ٤٦ ، ١٠٥ ، ١٣٩ ، ١١٨ .
(٢) أنظر الديوان الصفحات الآتية على التوالى ٩ ، ٥٠ ، ١٩١ ، ٢٢٢ .

لم يجد جوابا فيحسبها فى الرؤى والأحلام ، ويظنها فى النجوم والبروق ، ويفتش عنها فى الفصول ولكنه لايعثر عليها فعاد إلى نفسه واليأس يحيط به من كل جانب بعد تأمله الطويل فى الظواهر الكونية وأخيرا يعرف أنها كانت معه ولكنه ضيعها فيهتف فى حزن غامر (١) .

حتـــى إذا نشـــر القنـــوط ضبـــابه ... فوقـــى فغيبنـــى وغيـــب موضعـــى
وتقطعـــت أمـــراس آمـــالى بهـــا ... وهـــى التـــى مـــن قبـــل لـــم تتقطـــع
عصـــر الأســـى روحـــى فسالت أدمعـا ... فلمحتهـــا ولمستهـــا فـــى أدمعـــى
وعلمـــت حـــين العلـــم لايجدى الفتـــى ... أن التـــى ضيعتهـــا كـــانت معـــى

والشاعر فى قصة بحثه عن السعادة أو عن الحقيقة كأنه جوال يضحى بكل شىء فى سبيل الوصول ، وروح ابن سينا تسيطر عليه حيث يعارض قصيدته التى مطلعها :

" هبطـــت إليـــك مـــن المحل الأرفـع ... ورقـــاء ذات تعـــزز وتمنـــع

والأبيات تتسلسل تسلسل الأحداث فى القصة ، وتستمر كأنها البناء الشامخ كل طابق فيه يعلوه مابعده ويشد من أزره ، وإن كان الحوار من مقومات البناء الفنى للقصة فقد أبرزه أبو ماضى وسأل نفسه وغيره.

– والعقدةُ التى تمثل الأزمة فى القصة وتأتى بعدها لحظة التنوير أو الحل يعبر عنها الشاعر فى موقفه من نهاية القصة حيث اكتشف أن السعادة التى ضيعها كانت معه ولكنه لايدرى .

وفى قصة " السجينة (٢) يتأمل قضية الحرية من خلال قصة زهرة قطفها إنسان من الروض الطليق ووضعها فى قصره الموشى بالزخارف – ويجسد حزنها " ويدين الإنسان لموقفه النفعى حيث يرمى الزهرة تحت النعال حين يجف عطرها ، ويستخلص من هذا المشهد الذى نسج منه قصته حكمة صائبة فى الحياة وتناقضها ، وقد لاتكون الحكمة جديدة ولكنها من وحى تجربته التى عبر عنها ومن هنا تأتى طرافتها وجدتها يقول :

فكـــم شقـــيت فـــى ذى الحيـــاة فضـــائل ... وكـــم نعمـــت فـــى ذى الحيـــاة عيـــوب
وكـــم شيـــم حسنـــاء عاشـــت كأنهـــا ... مســـاوىء يخشـــى شرهـــا وذنـــوب

(١) أبو ماضى : الجداول ص ١٥ .
(٢) المصدر السابق ص ١٦ .

وفى قصة التينة الحمقاء " يحارب الأنانية ونزعة الاستئثار بالخير وحجبه عن الناس وفى قصة " الشاعر والملك الجائر " يحارب تسلط الحكام ، وينوه بقيمة الكلمة الصادقة ويعلن رأيه فى الموت حيث تساوى الجميع . ولاتبقى إلا الحكمة السديدة التى أهداها الشاعر لمن بعده يقول (١)

فى حومة الموت وظل البلى ... قد التقى السلطان والشاعر
هذا بلا مجد وهذا بلا ... ذل ، فلا باغ ولا ثائر
عانقت الأسمال تلك الحلى ... واصطحب المقهور والقاهرُ

. . .

وتوالت الأجيال تطرد ... جيل يغيب وآخر يفد
أخنت على القصر المنيف فلا ... الجدران قائمة ولا العمد
ومشت على الجيش الكثيف فلا ... خيل مسومة ولا زرد
ذهبت بمن صلحوا ومن فسدوا ... ومضت بمن تعسوا ومن سعدوا
وبمن أذاب الحب مهجته ... وبمن تأكل قلبَهُ الحَسَدْ
وطوت ملوكا مالهم عدد ... فكأنهم فى الأرض ماوجدوا
والشاعر المقتول باقية ... أقواله فكأنها الأبد
الشيح يلمس فى جوانبها ... صورى الهوى والحكمة الولد

وفى " الأسطورة الأزليه " يتأمل صراع الإنسان مع نفسه حيث يثور على واقعه وتتناقض أمانيه ورغباته .

وفى قصيده " الحجر الصغير " (٢) يعبر عن فلسفته الاجتماعية فى المساواه بين الأفراد وفى هذه القصيدة يشخص أبو ماضى الجمادات ويخلع عليها صفات الأحياء . ويبرز أسلوبه القصصى ، فيكثر من استعمال الأفعال الماضية التى تأتى فى سرد الحكايات مثل سمع الليل ، كان ذاك الأنين ، فانحنى فوقها ، فرأى أهلها وهوى من مكانه ، فتح الفجر جفنه .

ويأتى بحروف العطف التى تربط بين الأبيات والأفكار وتعطى للأحداث ترتيبا يلائم الجو القصصى وكأنها المواد التى تعمل على تماسك لبنات البناء .

(١) أب ماضى : الخمائل ص ١٨ ، ١٩ .
(٢) أبو ماضى : الجداول ص ٣٧ .

ويغرق الطوفان المدينة البيضاء لأنها لم تهتم بهذا الحجر الصغير .

وللقروى فى ديوانه قصص شعرية كثيرة منها (١) " البلبل الساكت ، العصفور والباشق والإنسان ، السمكة الشاكرة ، الدوحة الساقطة ، حضن الأم ، الربيع الأخير .

ولم ترق قصص القروى إلى مستوى القصة عند أبى ماضى كما أوضحت سابقا . وذلك لميل القروى إلى القصيدة الغنائية التى تعبر بصورة مباشرة عن المشاعر وتغلب عليه اللغة الخطابية الرنانة وبخاصة فى قصائدة الوطنية والقومية .

فقصيدة " البلبل الساكت " تصور تعاطفه مع ذلك البلبل الذى كان طليقا وحاصرته الثلوج وكاد يقضى عليه – ويرمز إلى حبه للحرية حينما أطلق سراح البلبل وقال له « إنما الحر لايقيد حرا » .

وقصة الراهبه " لإلياس فرحات " يتحدث فيها عن الراهبة التى اعتزلت الحياة ودفنت شبابها فى ظلمة الدير بعد فجيعتها فى حبها ، وتبعث فيها الطبيعة الإحساس بالحياة مرة أخرى وذلك حين ترى زهرة ناضرة محبوسة فى أعالى الجدار ، فترى فيها صورة نفسها الحبيسة فى ظلمة الدير فتخاطبها وكأن الزهرة صورة لأمانيها الدفينة ونفسها التواقة إلى النور والحرية وهنا يتجلى الموقف التأملى فى أرقى صوره حيث تخاطب الراهبة الزهرة فى لغة شفافة عذبة . :

أُخَـيَّةُ يهنيـــك هـــذا السمـــو ... وهـــذا البهـــاء وهـــذا الرضـــا
ولكـــن أمـــا كـــان أشهـــى إليك ... جـــوار الأزاهيـــر بـــين الربـــا ؟
تحـــوم عليـــك بنـــات القفيـــر ... وتسعـــى إليـــك صبـــايا القـــرى
لأنـــت تعيشـــين فـــى عـــزلة ... فـــلا فـــى السمـــاء ولا فـــى الثـــرى
لمـــن خلـــق اللـــه هـــذا الجمال ... ومـــن يتنشـــق هـــذا الشـــذا (٢)

ولرشيد أيوب قصة شعرية بعنوان" الشيخ والفتاة وأخرى هى " أبنة الكوخ ، ولإلياس فرحات قصة بعنوان " كل حر فى دولة الظلم جان ، وقصة أخرى هى الشهيدان " تدور حول الموت فى الحب وتجعله خلودا "

---

(١) أنظر ديوان القروى جـ ٢١ جـ ٢ الصفحات الآتية ٦٦ ، ١٣٤ ، ١٨١ ، ٢١٢ ، ٨٠١ .
(٢) د / حسن جاد الأدب العربى فى المهجر ص ١٧٧ .

ثانياً : الملاحم والأساطير :

للأساطير فى الشعر المعاصر دور فى إبراز جمال التجربة الشعرية حيث تكسبها عمقا ورحابة ، وتضفى عليها سمة من الغموض المحبب الذى يعطى للمتلقى فرصة لتشغيل ذهنه ، ويفتح أمامه باب التخيل فيرى فى التجربة ألوانا متعددة من الصور والمضامين ، وقد استوحى المهجريون من الأساطير بعض تجاربهم وخاصة فى مطولاتهم الشعرية التى أخذت طابع الملاحم " ويمتزج فيها الخيال المحلق بالواقع ، وتلتقى فيها الحقائق بالأساطير . ومع ذلك فنحن نتساهل فى التعبير حين نطلق على بعض هذه المطولات اسم الملحمة ، فمهما بدا فيها من ملامح الملاحم . ومهما سادها من الجو الأسطورى والخيالى ، فهى لاتبلغ على كل حال مبلغ الإلياذة أو الشاهنامة فى استواء العناصر وطول النفس " (١) .

ومن هذه المطولات مطولة " ليليت " لرياض المعلوف وقد استوحاها من خبر جاء فى إحدى صحف بغداد فحواه " أن أحد رجال البعثة الأثرية التى تبحث عن الآثار فى مدينة – آور – وفق إلى اكتشاف آثار تعود إلى ماقبل التاريخ وتشير إلى زواج آدم من – ليليت قبل حواء ثم تركه الأولى وزواجه من الثانية .

– وليليت عندما رأت آدم تحول عنها إلى حواء دبت نار الغيرة فى قلبها فلبست جلد أفعى وعملت على أن تطعم آدم التفاحة المحرمة التى كانت سببا فى إخراجه من الجنة " (٢) .

– والنصوص الدينية لاتؤيد ذلك . ولذلك عددت مثل هذا الكلام من قبيل الأساطير ومن خلال هذا الخبر يعبر "رياض المعلوف " عن رأية فى المرأة ، والتقاليد الاجتماعية ، ونوازع الإنسان ورغباته . كل ذلك فى أسلوب قصصى وأوزان قصيرة متنوعة تعبر عن موقف اللهفة والحيرة الذى أحاط بآدم ، وتصف الواقع المشوب بالحسرة والخوف الذى عايشة آدم بعد ما طرد من الجنة .

وخيال الشاعر لم ينأ به عن التحفظ فى الحديث عن آدم حيث يقول :

شـــــردَه الـديـــــانْ والمـــــرءُ لـــــم ينقـــــمْ
فـــــراح فـــــى الأكـــــوانْ فـــــى جـــــوها ينعـــــمْ
ونحـــــن حتـــــى الآنْ مـــــن أجلـــــه نظلـــــمْ

(١) د / حسن جاد / الأدب العربى فى المهجر ص ١٨٦ .
(٢) رياض المعلوف زورق الغياب ص ٩٩ " مقدمة " ليليت " .

وكـــــــان فـــــى الحـرمـــــانْ مـــــن قبـــــل كالمعـــــدمْ
يسيـــــــــــر كالعميـــــــانْ لســـــــــانه أبكـــــــــمْ

فآدم لم يشرد وإنما اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ، ومن أين يجيئنا الظلم بعد آدم ؟ هل من الله ؟ ومارب بظلام للعبيد ، ولايظلم ربك أحدا .

وهل سار آدم كالعميان ؟ وهل أصابه البكم ؟ ومثل هذا الوصف غير لائق فى الحديث عن الأنبياء مهما كانت مبررات التصوير والخيال الشعرى .

واستوحى نسيب عريضة مطولته " على طريق إرم " من أسطورة عربية كما يقول فى مقدمة القصيدة " جاء فى أساطير العرب أن " إرم ذات العماد " مدينة عجيبة بناها شداد بن عاد من حجارة الذهب واللؤلؤ والجواهر فكانت فتنة باهرة للعيون ، لايقدر القادم من بعيد أن ينظر إليها إذا واجهها فى ضوء النهار ، ثم أقفرت هذه المدينة العجيبة واختفت فى الصحراء فهى فى مكان محجوب . عامرة بقصورها السحرية وكنوزها المباحة ، ولكن لايمكن الاقتراب منها وقد طلبها كثيرون فهلكوا أوضلوا ، وعادوا قانعين من الغنيمة بالإياب " (١) .

ومعلومات الناس عن " إرم ذات العماد " وتصورهم لها وشعورهم نحوها يجعلها أسطورة ولكنها كانت حقيقة كما جاء فى القرآن الكريم بأنها " لم يخلق مثلها فى البلاد " ويقال إن " إرم " أسم لقبيلة تمتع أهلها بالشرف الرفيع والسيادة .

وقد استخدمها الصوفيون رمزا للوصول إلى الحقيقة ومجاهدة النفس . وفى الأدب الحديث أصبحت رمزاً للبحث عن المجهول والوصول إلى اليقين والزاد الروحى الخاص ، ويأخذ نسيب نفسه فى هذه الرحلة ويصطحب القلب والعقل والأفكار ولكنهم لايواصلون معه الرحلة ويبقى وحيداً مع نفسه ، وتتمثل له الحقيقة فى ضوء بعيد وكأنه اشراقة المعرفة فى نفسه فيقول متأملاً ماضيه وحاضره ومستقبله وهاربا من الوجود كله برغم أن عقله لم يوافقه على ذلك ، وقلبه لم يغامر معه إلى نهاية الطريق يقول :

نحـــــو ذاك الـــوميـــــضْ ســـــربنـــا نستعيـــــــض
عن ظـــــلام الحضيـــــــض وشقـــــــاء الـوجـــــــود
بسنـــــــاء الـــوعـــــــود

(١) د / نادرة جميل السراج : نسيب عريضة الشاعر الكاتب الصحفى ص ٩٥ .
(٢) المصدر السابق ص ١٠٦ .

إيـــه ضـــوئى البعيـــدْ لـــح ولـــح مـــا تريـــد
ليـــس طـــرفى يحيـــد عـــنك حتـــى يعـــود

لتـــــــراب ودود

لـــح ولـــح فـــى الفضـــاء ! قـــد سمعـــت النـــداء
ودليـــلـــى الـرجـــاء فعســـاه يقـــود

ظامئـــا للـــورود

يقول " حبيب إبراهيم كاتبه " فى مقدمته لديوان الأرواح الحائرة مقارنا بين قصيدة نسيب ، وقصيدة منطق الطير لفريد الدين العطار ، " وقد نحا الشاعر فيها طريقة الصوفيين فى وصف مقاماتهم ورحلاتهم من عالم الشهادة إلى عالم الغيب فهى تذكرنا بقصيدة منطق الطير لفريد الدين العطار كما نعلمها عن الترجمة الإنجليزية عن الأصل الفارسى لادوارد فتزجيرالد مترجم رباعيات الخيام المشهورة ، على أن الفرق بين القصيدتين أن قصيدة فريد الدين العطار تشرح لنا طرفا من فلسفة الصوفيين وتشتمل على كثير من حكمهم ، وقصيدة عريضة درس دقيق فى تنازع عوامل النفس والحس والعقل " (١)

– ومن الذين وظفوا الأسطورة فى التعبير عن أفكارهم وتأملاتهم فى تناقضات الحياة ومثالبها الشاعر " شفيق معلوف الذى أبدع مطولتيه " الأحلام " ، وعبقر وقد استوحى " عبقر " من أسطورة عربية تقول إن " عبقر قرية تسكنها الجن ينسب إليها كل عمل جليل وجعلها الشاعر مسرح أفكاره وميدان تأملاته وحارب نقائص الإنسان وهو يصف الشياطين ، وكم كان وصفه بارعا دقيقا للشيطان حتى لو أردنا أن نرسم من كلمات الشاعر صورة للشيطان لما أعوزنا ذلك . يقول :

فـــى فـــمه مـــن سقـــر جـنوةٌ منهـــا يطيـــر الشـــرر الثـــائر
ووجـهـــه جمجمـــة راعنـــى أنيابهـــا والمحجـــر الغـــائر
كأنمـــا محجـــرها كـــوةٌ يطـــل منهـــا الزمـــن الغابر

(١) المصدر السابق ص ١٠٦

ويتجول الشاعر فى هذا الوادى العجيب . ويقابل الشياطين ويطلق على كل واحد منهم اسما ويرمز لكل نقيصة إنسانية بشيطان . ويؤكد رفضه لواقع الإنسان البغيض حين يجعل عرافة الجن مذعورة من دخول الإنسان وأديهم .

وقد أشاد بهذه المطولة الناقد البرازيلى " أغريبينو " فخاطب الشاعر " لقد وجدت فى ملحمتك أفكارا وصورا جديدة ، فالوزن ينقاد حرا طليقا معبرا .. وفيها كثير من التآلف والانسجام ، ولكن الأهم هو ما انطوت عليه من فكر صائبة ، مما يدل على تأملك العميق فى مصير البشرية . أما القسم الخيالى فقد حفل برموز غنية ، ليست فى الحقيقة سوى وسيلة للتعبير عن كثير من الأهواء والنزعات التى يتخبط فى دياجيرها إنسان هذا العصر المعذب (١)"

- وكما حاول نسيب الوصول إلى الحقيقة ، والهروب من العالم المادى المتصارع المتناقض وكما كشف شفيق المعلوف النقائص البشرية وأدانها فى " عبقر " .

يمتطى فوزى المعلوف " بساط الريح " ليلتقى بروحه فى الفضاء بعيدا عن الأرض وشرور الإنسان .

وقد استوحى هذه الملحمة من أسطورة شرقية تزعم أن السحرة تمتطى بساط الريح فى غدوها ورواحها .. والمطولة " مجموعة قصائد عميقة المغزى مرتبطة بفكرة واحدة ، وشعور واحد ، يغلب فيها التأمل على الفلسفة ، فترى روح الشاعر الحالمة متنبهه لأجمل مظاهر الطبيعة وأعمق العواطف الحية ، كل ذلك فى شعر غنائى جلى " (٢) .

وفوزى المعلوف يهرب من العالم الذى أفسده الإنسان ويطير فى الآفاق ، ليلتقى بروحه ويجد حريته وبعد جولة بين الكواكب والنجوم والطيور والأرواح يعود وقد أعطانا موقفه من الإنسان وأفكاره وآراءه فى الحياة بعد تأمل أحوال الكون ومتناقضاته وقد سيطر على القصيدة جو حزين قاتم فسره الشاعر فى النشيد الثامن :

عشت بين المنى يراود نفسى ... خُلُبٌ من طيوفها وعقامُ
اقتفيها وفى يَدَىَّ فؤادى ... ثم ألوى وفى يَدَىَّ حطامُ
أى عود حملته للتلهى ... لم تقطع أوتاره الأيام ؟

(١) مجلة العصبة الأندلسية عدد يناير وفبراير ١٩٥٠ نقلا عن د/ حسن جاد فى كتابه الأدب العربى فى المهجر ص ٢٠٥

(٢) من مقدمة فرنسيسكو فيلاسيازا للقصيدة نقلا عن د/ حسن جاد فى كتابه الأدب العربى فى المهجر ص ١٨٧

أى كـــأس قربتـــه مـــن شفـــاهـى لـــم يحـــل حنظـــلا عليـــه المـــدام ؟
ضـــــاع عمـــــرى سعيـــا وراء رســـوم خططتهـــا فـــى الشـــاطىء الأقـــدام .

وهو هنا كأغلب أدباء المهجر يغلب عليه الخيال الرومانسى فالأجواء التى تحفل بها أجواء رومانسية خالصة ففى هذا النشيد نرى " الحلم الذهبى والعود المقطع الأوتار ، والكأس الملأى بالحنظل ، الرسوم الضائعة على الشاطىء . وهذه جميعها هى ملامح المشهد الرومانسى البكائى الجنائزى .

وتبرز فى شعر فوزى " قيمة النغم الذى يوقع على وتر خاص فى ضمير الشاعر ، فتراه يغمر القصيدة بمثل الأنين والشجو والحنين ، نغم الوزن الخفيف ، والقافية اللاهثة المتحشرجة فى الهاء ، بل فى ضرب من صياغة الحروف والألفاظ فى العبارة بحيث يخيل إليك أن معانيها هى أداؤها الأقل وأن ما يواكب المعانى من إيقاع وترجيع هما صنو لحالة الذهول التى لايستقيم شعر الا بها " (١) .

ثالثاً : الرمز الفنى "

والرمز من أدوات التعبير التى تهب العمل الفنى الجودة والوحدة الفنية وكثافة المعنى . وقد كان الرمز من أدوات التعبير عند المهجريين . وتنوع الرمز وتلون عندهم فهم يستخدمون الطبيعة الحية رمزا لمضامين يرغبون فى التعبير عنها ، وكذلك يوظفون الطبيعة النباتية كالزهور ، والأغصان ، والعليق ، ويخلعون على الطبيعة الجامدة صفات الأحياء ويشخصونها ومن خلالها يبثون أفكارهم وتأملاتهم ويلجأون أحيانا إلى التجريد كما فعل نعيمة فى قصيدته " الاكتمال والجوع ، فالعصفور عند رياض معلوف يرمز به إلى الفشل فى الحب تارة وتارة أخرى يرمز به إلى القلب المحلق فى آفاق البهجة .

فقصيدته " العصفور الأعمى " (٢) معاناة وجدانية صادقة يتخذ الشاعر العصفور الأعمى رمزا للإنسان الذى أحب . وضحى ، ولقى الأذى ولم يكافأ إلا بالصد والعذاب والحرمان .. يقول الشاعر مخاطبا العصفور الأعمى :

---

(١) إيليا حاوى : فوزى المعلوف شاعر البعد والوجد ص ١٠٠ .
(٢) رياض المعلوف : زورق الغياب ص ٣٩ .

عـــذابك فـــى الهـــوى هـــذا عـذابـى ... وهمـــك أيهـــا العصفـــور همـــــى
سقـــطت مـــن الغصـــون وكنـــت تشـدو ... لهـــا مـــن حســـرة وجـــوى وظلـــم
فمـــت ومـــات فـــى الآفـــاق لَحْـــن ... يظـــل علـــى الـــدوام بكـل فهـــم

وقد أضاع الشاعر مغزى الرمز حين عقد مقارنة بينه وبين العصفور فى البيت الأول " عذابك " ... ولو ترك الحديث عن العصفور مجردا من كل تحديد لاكتسب الرمز خصوبة وسعة وثراء .

وفى قصيدته " رقصة العصفور (١) يأخذ العصفور مفهوما آخر حيث يرمز به إلى القلب المنتشى الراقص المحلق فى آفاق البهجة ..

وعند القروى يأخذ العصفور رمز الاغتراب حيث يبثه الشاعر أشجانه وأحزانه وتأملاته وهو فى غربته المقاسية فيخاطبة :

هـــل أنـــت ياعصفـــور مثلـى غـريب ... هـــل لك مثلـــى إخـــوة فـــى الـوطـن
هـــل أنـــت مثلـــى هاجس بالحـبيب ... مـــن ذا الـــذى تهـــواه مـــن ؟
كأنمـــا أنـــت بصـــدر القفـــص ... مصفـــق الجانـــح لاتستريـــح
طيـــر ذبيـــح فـــى ضلـوعى رقـص ... وما انتهـــى بعـــد عـــذاب الذبيـح

وعند أبى ماضى يصبح البلبل فيلسوفا مجنحا داعيا للحب ، باحثا عن أليف ضاع ووطن لم يصل إليه بعد .. فالحيرة هنا لب الرمز .. وليس بغريب على أبى ماضى أن تتعمق رموزه ، وهو صورة لنفسية أبى ماضى الحائرة الباحثة عن طريقها الصحيح ، والمشتاقة إلى وطنها ، والتائهة فى زحام الحياة المادية يقول (٢) .

يافيلســـوفا قـــد تلاقـــى عنْـــدَهُ ... طـــرب الخلـــى وحرقـــة المتوجـــد
تشـــدو وتبهـــت حائـــرا متـــرددا ... حتـــى كأنـــك حـــين تعطـى تجتـدى
وتمـــد صـــوتك فـــى الفضـا متلهفـا ... فـــى ذلـــة المستـــرحـم المستنجـد
فكأنمـــا لك مـــوطـــن ضيعتـــه ... خلـــف الكواكـــب فـــى الزمان الابعـد
إن كنـــت قـــد ضيـــعت إلفك إننى ... أبكـــى علـــى إلفـى الـــذى لم يوجـد

(١) السابق ص ٧٣ .
(٢) أبو ماضى تبر وتراب ص ١١٣ .

والبلبل عند أبى ماضى فى موضع آخر رمز للرقى الإجتماعى والحرية والدودة رمز للإحساس بمركب النقص حيث تطمح أن تكون ذات جناحين حتى تطير وتحلق مثل البلبل .

وقصيدته " دودة وبلبل " المتضمنة للرمز السابق تصوير مكثف لفكرة الأسطورة الأزلية وصورة بوجه آخر لقصة البنفسجة الطموح لجبران . يقول : (١) .

نظـــرت دودة تـــدب علـــى الأرض ... إلـــى بلبـــل يطيـــر ويصـــدح
فمضـــت تشتكـــى إلـــى الورق الساقط ... فـــى الحقـــل أنهـــا لـــم تجنـح
فأتـــت نمـــلة إليهـــا وقـــالت ... أقنعـــى واسكتـــى فمـــا لك أصلـح
مـــاتمنيـــت اذ تمنـــيت إلا ... أن تصيـــرى طيـــرا يصـــاد ويذبـح
فالزمـــى الأرض فهـــى أحنى على الـدود ... وخلـــى الكـــلام فالصمـت أريـح

وعند نعيمة تصبح الدودة رمزا للحرية والخلو من التبعة ، ورمزا للمساواة ايضا ورمزا للإيمان كذلك . الإيمان البعيد عن التقنين والبحث عن الأسرار يقول نعيمة : (٢)

وأنـــت التـــى يستصغـــر الكل قـــدرها ... ويحسبهـــا بعـــض زيـــادة نقصـــان
تـــدبين فـــى حضـــن الحياة طليقـــة ... ولاهـــم يضنيـــك بأســـرار أكـوان

ويؤمن الشاعر بالمساواة ويخاطب الدودة :

لعمـــرك يااختـــاه ، مافـــى حياتنا ... مـــراتب قـــدر أو تفـــاوت أثمـــان

ويتخذ شفيق معلوف من " الكلب " رمزا " للفئة التى تعين الإنسان على ظلمه وذلك فى قصيدته " مشهد صيد " ولدى شفيق قدرة على الوصف الدقيق كما أوضحت سابقا فى مطولته " عبقر " فبعد أن أحضر له الكلب الصيد ناجى شفيق نفسه مفسرا ذلك الرمز قائلا :(٣)

فقلـــت لنفســـى كيـــف تنصـــرظالما ... وتخـــذل مظلـــوما وتعتـــز مقصـــدا
حـــرمت اعتســـافا أمـــن الطيـــر وكره ... وأرديتـــه فـــى وكـــره وهـــو ما اعتدى
فيـــا سالـــب الأعمـــار رفقا بها ولا ... يغـــرك جهـــلا أن فـــى يدك الغدا

---

(١) م . نعيمة خمس الجنون ص ٨٥ .
(٢) شفيق معلوف لكل زهره عبير ص ١٤٦ .

وفى قصيدته " مصرع الأسد " ينعى على الطاغين ظلمهم ، ويتهكم على المستعمرين ، ويدعو إلى مقاومتهم حيث أخذ من قَتْل عاهل الحبشة لأسده دعوة للقضاء على المستعمر يقول : (١)

وكأننـــى بـــك ناظـــر فى شدقـــه ... أســـدا بلنـــدن مـــاوفى بذمـــار
فرميـــت لبـــدته فزمجـــر وارتمـــى ... متخبطـــا بـــدم الإبـــاء الجـــارى

ومن الملاحظ أن الرموز الشعرية لم تتخذ عند المهجريين وظيفة خاصة مستقلة فلم تحدد رموز معينة لمظاهر معينة وإنما لاحظت أن الشىء الواحد يستخدم فى رموز كثيرة كما أوضحت فى الحديث عن العصفور واختلاف الرمز به .

ووظفوا الظواهر الطبيعية كالنبات والبحار ، والأنهار والشمس ، والقمر واتخذوا منها رموزا لنقل مشاعرهم وأفكارهم .

فالغصن المثمر يرمز به رياض المعلوف إلى حبيبته فى لغة هامسة ، وإيقاع راقص ، يتلاءم مع الجو النفسى للتجربة الشعرية

والجدول الطروب يرمز به أبو ماضى إلى قيمة اجتماعية تتمثل فى صنع الخير وعدم التباهى به وهو مايسمى مبدأ " إنكار الذات " ويقول عنه (٢) بعدما رأى إعجاب الطبيعة به :

فوقفـــت أرمقـــه وأســـأل حائرا مستفسرا
مـــاحبب الأطيـــار والاشجـــار فيه ياتـــرى ؟
أحصـــاه ؟ إن البحـــر يحوى فى حشاه جوهرا
أم مـــاؤه ؟ إنـــى رأيـــت الســـيل منه أغزرا
أو طهـــره ؟ إنـــى وجـــدت الطـــل منه أطهرا
ما الســـر فـــى هـــذى ولا فى كونه يسقى الثرى
بل كـــونه يســـدى الجميل ويستحى أن يظهـــرا

---

(١) السابق ص ٨١ .
(٢) جورج ديمترى سليم ، إيليا أبو ماضى دراسات عنه وعن أشعاره المجهولة .

والزهرة عند " شفيق معلوف " رمز للأمل ، والصخرة رمز للإنسان اليائس الذى لم يفقد بارقة الأمل . ويتخيل أن الزهرة النابتة فى الصخرة حلم نابت ، وحّى تململ فى ذراعى مائت ويسائل الزهرة فترد عليه :

أنا لست إلا ومضة الذكرى على تقطيبة الصخر الكئيب الصامت (١) وليس يخفى مافى هذه الصور الشعرية من طرافة وجده . وخيال مبتكر ، وامتداد فى الصورة يجعل الصورة الشعرية لوحة متكاملة . تنفذ إلى أعماقنا وتحبب إليها الحياة .

والنهر عند نعيمة يرمز به إلى قلبه الذى تجمدت فيه الحياة – أو إلى شعبه الذى كبلته القيود ، ويستمد الشاعر من ذوبان الثلوج وتغير الفصول ومجىء الربيع رمزا للأمل الذى يتعلق به .

والصخر عنده رمز للصراع الذى يؤرق الإنسان ويضنيه ويفسر هذا الرمز فى نهاية قصيدته " يابحر " (٢) .

وقفت والليل داج ... والبحر كر وفر
فلم يجبنى بحر ... ولم يجبنى بشر
وعندما شاب ليلى ... وكحل الأفق فجر
سمعت نهرا يغنى ... الكون طى ونشر
فى الناس خير وشر ... فى البحر مد وجزر

والبحر عند " جبران " صورة لمبدأ الحياة ، وكل القيم تتجمع فيه .

فالعزم له وليس للغاب ، والرمز له وليس للصخر ، والريح الفاصلة بين السديم والسماء ملك يديه ، والنهر الذى يروى ظمأ الأرض مشتق منه ، والطود الخالد تابع له ، فالكل له حتى الفكر ، فالبحر عند جبران مصدر الحياة منه تبدأ وإليه تعود .. وهذه النظرية عند جبران خيال شعرى وتأمل بعيد عن الحقائق العلمية لكنه فيه مسحة فلسفية يعبر بها جبران عن رأيه الخاص فى مصدر الحياة .

---

(١) شفيق المعلوف لكل زهرة عبير ص ٧١ .
(٢) م . نعيمة : خمس الجفون ص ٩٨ .

رابعاً : الحوار الشعرى

– وإلى جانب القصص الشعرى والملاحم والأساطير ، والرموز الفنية استخدم المهجريون فى التعبير عن تجاربهم التأملية الحوار الشعرى . وهو يعطى القصيدة طابع المسرحية ويجعل الأصوات تتعدد فى القصيدة ، واكتسبت بذلك القصيدة عند المهجريين سمة التجديد والتعبير عن المضمون بحرية وعمق ، ونجد هذه الظاهرة عند كثيرين منهم مثل جبران فى " مواكب " وقصيدته " الجبار الرئبال " (١)

فالقصيدة كلها حوار بين ذلك الطيف الذى تخيله من شعاع وسديم وضباب ، وتبيَّن بعد الحوار بينهما أنه الشاعر نفسه والحوار يبدو رائعاً حيث تتكون القصيدة من قوافٍ متعددة كل بيتين على قافية الأول يبدأ بـ " قلت " والثانى بـ " قال :

قلت : ياطيفـــا يعيـــق الليـــل فـــى ... سيـــره ، هـــل أنـــت جن أم بشـــر ؟
قـــال مغتاظـــا وفـــى ألفاظـــه ... رنـــة الهـــزء : أنـــا ظـــل القـــدر

وعند أبى ماضى يكثر هذا الحوار الشعرى فى كثير من قصائده ، وقد يأتى فى صورة تساؤلات كما فى قصيدته " الطلاسم " وقصيدته " المساء " .

ولم يكن الحوار الشعرى عند أبى ماضى خياليا كما هو عند " جبران " بل رأيناه يدير الحوار كثيراً بينه وبين زوجته " دوروثى " واتسم هذا الحوار بالإيجابية حيث كانت تناقشه فى أمور الحياة : ومن هذاالحوار قوله (٢)

لـــم أنـــس حـــين مشـــت إلىَّ تلومنـــى ... لمـــا رأتنـــى باسمـــا متهـــللا
قـــالت : أتطـــرب والمـــنايا حـــوم ... فـــى الأرض كيف رمت أصابت مقتـــلا ؟
أنظـــر فقـــد خـــلت البيوت من الشباب ... ولا جمـــال لمنـــزل منهـــم خـــلا
فسألتهـــا : أوليـــس مـــن أجـــل العـــلا ... شهـــداؤنا " خاضوا الوغى ؟ قالت : بلـــى

.. وتحاوره زوجته فى عقيدته الدينية .

---

(١) جبران : البدائع والطرائف ص ١٠٦ .
(٢) جورج ديمترى سليم : أبو ماضى ص ٥٦ .

وسائـــلة " أى المـــذاهب مذهبـــى وهـــل كان فرعا فى الديانات أم أصـــلا ؟
وأى نبـــى مرســـل أقتـــدى بـــه وأى كتـــاب منـــزل عنـــدى الأغلـــى ؟ (١)

وفى " الدمعة الخرساء " (٢) يتحدث عن زوجته ويدور بينهما حوار فلسفى يعبر به أبو ماضى عن فلسفته فى مذهب " التقمص والتناسخ " ويتأمل مصير الإنسان بعد موته :

كـــانت تمـــازحنى وتضحـــك فانتهـــى دور المـــزاح فضحكهـــا تفكيـــر
قالـــت وقـــد سلـــخ ابتسامتها الاســى صـــدق الـــذى قـــال الحيـــاة غرور
أكـــذا نمـــوت وتنقضـــى أحلامنـــا فـــى لحظـــة وإلـــى التـــراب نصير
فأجبتهـــا لتكـــن لديـــدان الثـــرى أجســـامنا ! إن الجســـوم قشـــور
لاتجـــزعى فالمـــوت ليـــس يضيـــرنا فلنـــا إيـــاب بَعْـــدَهُ ونشـــور

وليست الطرق التعبيرية السابقة هى المعنى الوحيد عن التأمل . فقد تتسم التجربة بالثراء والعمق والتأمل وليس فيها من القصة شىء ولا الملحمة ولا الأسطورة ، ولا الحوار . وقد تتوفر الطرق السابقة وتكون تجربة فقيرة كاسدة نائية عن الخصوبة والثراء ولكنها عند المهجريين كما أوضحت سابقا ، زادت من خصوبة التجربة عندهم وعمقها وأتاحت لهم أن يتأملوا كل ماتقع عليه حواسهم . وتنفعل به مشاعرهم .

(١) أبو ماضى : الخمائل ص ٧٩ .
(٢) أبو ماضى : الجداول ص ١٧٨ .